التعددية اللغوية فى القارة الإفريقية
وأثرها على أدب الطفل

د. ربيع فتحي علي محمد الحسيني
دكتوراه في فلسفة الإدارة العامة ـ جامعة بني سويف

مقدمة:

إفريقيا أصل الحضارة الإنسانية ومنبعها، فمنها خرج الإنسان الأول وعلى أرضها نشأت أقدم الحضارات.

والعولمة إذا كانت تشكل تحديًا لقارتنا الإفريقية، إلا أنه يجب أن نجعل منها فرصة جديدة تتيح لثقافتنا في القارة الإفريقية المزيد من النمو والنضج والإسهام في رقي الإنسانية.

إن إفريقيا تعيش معضلة كبيرة نظرًا لما تطمح إليه، وما تجده في الواقع العملي، ذلك أنها كلما خطّطت لإجراء إصلاحٍ تربوي ثقافي أدبي داعٍ إلى تطوير لغاتهم وآدابهم الأصلية اصطدمت بتنمية لغاتٍ غربية مقابل إعفاء الديون أو التخفيف منها.

وإذا كان الاستعمار الأوربي قد ترك للدول الإفريقية ميراثًا من المشكلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أن قدرة مثقفي القارة على تجاوزها باتت فى هذه الآونة أقوى من أى زمنٍ مضى.

إن معركة الثقافات هي السمة البارزة في المشهد الثقافي الإفريقي؛ نظرًا لوجود بقايا من ثقافاتٍ تُعد من ميراث الاستعمار، وكذلك بالنظر إلى تداخل اللغات المحلية مع لغات المستعمر السابق ومنها: الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية، معتبرًا ذلك إحدى المشكلات التي تواجه أدب الطفل الإفريقى، ليس على مستوى القارة الإفريقية (بين دولة ودولة)، بل تصل إلى حد الصراع بين ثقافتين في الدولة الواحدة، وقد تؤثر سلبًا على عملية بناء الشخصية الأدبية داخل الدولة الواحدة.

القارة الإفريقية ومشكلة التواصل المعرفى:

وفى الوقت الذي يرى فيه المراقبون أن مستقبل العالم مرتبطٌ بالقارة الإفريقية مما يحتم ضرورة التعاون والتنسيق بين الدول الإفريقية، نجد أن هناك مشكلة تواصل داخل

القارة الإفريقية، وهو ما يجعل الفجوات المعرفية والثقافية بين الدول الإفريقية المختلفة كبيرة.

فإفريقيا التي هى ثانى أقدم قارات العالم من حيث المساحة والسكان وتتكون من (٥٤) دولة، ترجع مشكلاتها التي خلّفتها الحدود المرسومة بين الدول الإفريقية إلى الطريقة التي اتبعها الأوربيون فى تقسيم إفريقيا فيما بينهم أثناء مؤتمر برلين ١٨٨٥، حيث لم تراع الدول الأوربية أي اعتبارات خاصة بالأفارقة، مثل: التجانس العرقى واللغوى، والتكامل الاقتصادى، والإرث الحضارى، كما أن الدول الإفريقية لم تُعط أى فرصة لإبداء رأيها، وإنما لعبت المنافسة والتسابق والاستحواذ على مناطق النفوذ دورًا مهمًا فى وضع الحدود.

إلا أننا نستطيع أن نجعل من الثقافة منطقة لتفاعل الأفارقة جميعًا، فكيف يمكننا ذلك؟

التعليم وحده لا يكفى:

إذا كان التعليم هو اللبنة الأولى في بناء شخصية الإنسان وصقلها ووضعها على الطريق الصحيح لتخريج أجيالاً متمكنة من العمل والمساهمة في عملية التنمية المنشودة في الدولة، فإن ذلك يبقى من دون قيمة وبلا أهمية ما لم تُحدد معالم وملامح الهوية الوطنية، ودعمها وتعزيزها وترسيخها في نفوس وعقول وقلوب أبناء الوطن، أجيال الحاضر ورجال المستقبل، الأمر الذي يؤكد أهمية وضرورة الثقافة، ودورها المحوري في تحقيق ذلك، لتشكل مع التعليم جناحي الدعم والتعزيز للهوية الوطنية للقارة والتي ننشدها جميعًا.

وعلى الرغم من أهمية التعليم في بناء وتعزيز الهوية الوطنية، لكن لا يجب أن نحمّل وزارات التربية والتعليم المسئولية كلها، بل تتحمل ذلك كل المؤسسات بما فيها الإعلامية والتعليمية والتربوية، وبرامج التليفزيون والإنترنت وغيرها من المكونات التي تبني ثقافة الإنسان وتؤثر فيه، وبالتالي فإن المدرسة وحدها وفي ظل هذه الأجواءالتي تمر بها القارة لن تستطيع بناء هوية الطفل، حتى لو تم تطبيق أحدث المناهج وبأفضل المعلمين، فإنها لن تجدي نفعًا؛ لأن الأساس في العملية هو التربية.

إن تعدّد الثقافات في الدولة والجنسيات ذات العادات والتقاليد المختلفة بالضرورة أن تؤثر تلك العادات سلبًا على هويتهم الوطنية، والمجتمع الذي لا هوية موحدة له لا وجود له.

المشهد اللغوي في إفريقيا .. المسار والعوائق:

في الواقع، هناك أشياء يجب إزالة الضباب عنها، منها أصالة اللغات الإفريقية وضربها في القِدَم، يظهر ذلك فيما يتردد أحيانًا في بعض المجلات المتخصصة والصحف؛ إذ نشر (Gautam Naik) بحثًا معنونًا بـ (أم اللغات)، في صحيفة (The Wall Street journal)، خلص فيه إلى ما تشير إليه دراسة جديدة "أن اللغة التي يتحدث بها البشر الإفريقي في وقتٍ مبكرٍ بين ٥٠.٠٠٠ و ٧٠.٠٠٠ سنة مضت، ساهمت في نجاح التطور للجنس البشري... ويستند في أبحاثه على الفونيمات، والوحدات المميزة للصوت، مثل حروف العلّة، ونغمات الحروف الساكنة".

ويذهب أيضًا إلى أن بعض اللغات الإفريقية تستخدم ما يزيد على ١٤٠ فونيمًا، مقارنًا ذلك بمثيلاتها في قاراتٍ أخرى تستعمل أقل من ذلك كثيرًا، فقارنها بغيرها ليستنتج أنها ساهمت في تطوير الفونيم أساسًا، ثم تأثيرها في غيرها من اللغات العالمية المختلفة.

وفي السياق نفسه، ذهب الدكتور "أتكينسون" إلى أبعد من ذلك، عندما توصل إلى دعم مقولته بـ "الأدلة الجينية مؤخرًا"، ليخلص إلى "أن الإنسان الحديث ظهر في إفريقيا وحدها".

وفي السياق نفسه، نشر(n McWhorterJoh) مقالة في صحيفة (The roo) بعنوان (للتعرف على اللغات؛ اسأل إفريقيا تخبرنا عن أصولنا)، استند المؤلف إلى أدلة جينية مبنية على "نقاط الحمض النووي، ليخلص أن إفريقيا هي مهد البشرية، وأن معظم أصوات المعمورة تنحدر منها".

إن الذي يتتبع الظروف التي تمر بها اللغات الإفريقية لا ينتابه شك في أنها تعيش وضعًا مزريًا، يعكس حال القارة نفسها؛ لكثرتها، ولقلة الاهتمام بها، مرورًا بالهيمنة اللغوية، والوضع الاقتصادي المتردي، وعدم التخطيط اللغوي، والهرمية... إلخ، كل ذلك ألا يمكن أن يكون له مردود؟!.

وعليه، يمكن أن نطرح السؤال الآتي: ما الظروف التي تمر بها اللغات الإفريقية؟ وما العوائق التي تحول دون تطورها؟

أولاً- وضع اللغات الإفريقية:

إن لغات العالم بفصائلها وفروعها لم تعد تُحصى بالعشرات ولا بالمئات، بل أضحت تُعد اليوم بالآلاف؛ إذ إن عددها في حياة نشطة وتزايد مستمر، من جانب آخر يُظهر التوزيع الجغرافي للغات العالم مشكلة من حيث تفاوت كثافتها الذي يتمثل في وجود ثلثيها تقريبًا "في (٩) دول فقط".

إذا كان ثلث لغات العالم توجد في القارة السمراء، فإن ثمة مشكلة تظهر من حيث التوزيع الجغرافي لهذه اللغات؛ إذ توجد نصف لغاتها تقريبًا في ثلاث دول فقط، كما مرّ أعلاه، فكان من المنطق أن تستعمل كل لغة أبجديتها الخاصة، والتي تعبر عن نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبي... إلخ، ولكن ما حدث عكس ذلك، فإن عدد الأبجديات حتى الآن عالميًا في حدود المائة، وعلى ضوء ذلك يمكن استنتاج أن أغلب اللغات الإفريقية تُستعمل شفهيًا، أي أنها في مستوى متدنٍ من التواصل.

وإذ كانت اللغات الإفريقية بهذا العدد العظيم، فإن الشعوب التي جنحت إلى وضع أبجديتها الخاصة أو ترسيم أبجدية لاتينية لنفسها قليلة في القارة السمراء، وعليه يمكن استنتاج أن مئات اللغات الإفريقية في خطرٍ محدق؛ لكونها لا تُستعمل في مستوى عالٍ من التخاطب، وإنما يقتصر استعمالها على شئون الحياة اليومية، وقد أثبتت بعض البحوث أن ثمة لغة تموت عالميًا في متوسط كل أسبوعين، ويهدد هذا الموت أغلب اللغات الإفريقية، والتي لم يفعل أهلها الشيء الكثير لحماية تراثهم اللغوي الذي يضمحل يومًا بعد آخر.

وفي الواقع، هناك محاولات فردية ومجهودات مشتتة منذ عقود - إن لم نقل قرون- لوضع الأبجديات في مختلف لغات إفريقيا، ويلاحظ أن بعضها تأثر بالعربية أو اللاتينية، بيد أن هناك أبجديات أخرى يمكن وصفها بالمحايدة، إلا أن القليل منها يحظى بالعيش إلى عقدٍ أو عقودٍ أو قرون؛ ذلك أن بعضها يموت بموت المؤلف؛ إذ إن حيوية هذه الأبجديات ودعمها يعتمدان على الجماعة اللغوية، والتي لا تستسيغ هذا الدعم ثقافيًّا، أضف إلى ذلك عدم اعتبار الحكومات والمنظمات غير الحكومية لها؛ ذلك أن أغلب الحكومات تعتمد أبجديات لاتينية، بناءً على هيكلة اللغات الرسمية، فتسعى إلى خلْق انسجام بين مختلف اللغات الوطنية، وذلك بفرض أبجدية ثابتة عليها، وهي غالبًا ما تكون لاتينية.

وعلاوة على ذلك، فإن أغلب الشعوب التي عرفت الثقافة الإسلامية في إفريقيا - منذ قرون- قامت بوضع أبجديات عربية، أو متأثرة بها للغاتهم، واستعملوها في كتابة نتاجهم؛ لتترك تراثًا علميًا غزيرًا في مختلف مجالات العلم، والذي يزور مراكز المخطوطات في مختلف عواصم الثقافة الإفريقية ينتابه العجب من غزارة هذه المؤلفات ومحتواها العلمي.

ولدراسة الموضوع من بابه الواسع، فإن اللغة تتعلق بالهوية، وما فقدته القارة من هويتها لا يقل عما فقدته من لغاتها، فهي تعيش صراعًا كبيرًا، ذلك أن أغلب شعوب القارة تأثروا بالثقافة الغربية، وبخاصة المتغربون الذين نهلوا منها وأُشرِبوا حبها، فأضحوا يعيشون اليوم حائرين! بل تاهوا، وآن الأوان أن ينظروا مجددًا إلى مجدهم ليفهموا "أن الهوية تُنقش بواسطة اللغة والثقافة والتاريخ، ويتوصل إلى كل ذلك عبر التعليم، في إفريقيا تختنق الهوية بثقل كاهل الاستعمار الثقيل الذي أنشأ البُنى المحلية لترسيخ إدارته، وفرض نظامًا تعليميًا، بما في ذلك اللغات والثقافات والتواريخ التابعة للدول الغربية".

إن بعض الدول الإفريقية تفتح أبوابها على مصراعيها لاستيعاب كل أنواع الثقافات المختلفة، حتى أضحى بعضها بذلك سوقًا استهلاكية لكل غثّ أو سمين منها، وظل بعضها أسيرًا أيضًا للنفوذ اللغوي الإمبريالي القائم أحيانًا على ما يُسمى (العلاقة الثقافية)، فتسعى إلى عقد صفقاتٍ بأي ثمن لاستعمال لغاتها في مستوى معين من الدراسة، كل ذلك قصد الحصول على أصدقاء جدد في الأسواق الإفريقية، فهذه المنظمة الفرنكوفونية "تترقب في عام ٢٠٥٠م أن تصل إلى ٨٥% من مستعملي اللغة الفرنسية في إفريقيا وحدها".

وعلى مستوى التغطية الإعلامية بين لغات العالم، يُلاحَظ أن هناك وضعًا ينذر بالخطر؛ لأن ٨٠% من الإعلام العالمي ينحصر في ٨٣ لغة، في موضوعاتٍ حاسمة على الشبكة العنكبوتية، وأغلب المحتويات (التي تصل إلى ٩٠%) توجد في ١٢% من لغات العالم، وعليه فهناك هوة كبيرة بين مختلف اللغات.

وقد قام خبراء في اللسانيات باليونسكو بجمع معلومات حول ٢٥٠٠ لغة، ووضع (أطلس لغوي) للغات مهددة عالميًّا في (١٩٩٦م، ٢٠٠٥م، ٢٠١١م)، فخلصوا إلى أن إفريقيا تعاني مشكلة وباء (الصراع اللغوي) فمثلاً: (نيجيريا، الكاميرون، ج. كونغو الديمقراطية، تنزانيا، السودان، إثيوبيا، تشاد) تدخل في عِداد مجموعة الـ ٢٥ دولة التي تعاني مشكلات عالمية.

ومع ذلك، فإن اللغات الإفريقية بالرغم مما تشهده من تفاوتٍ في الاستعمال والتعليم، من حيث الإقبال الكبير لدى جماعة، والمتوسط لدى أخرى، فإنها تُستعمل في وسائل الإعلام المرئية والسمعية، الرسمية منها أو الحرة، لطرح قضايا المجتمع، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو دينية... إلخ، وتُستعمل في التعليم لمكافحة الأمية فقط في بعض الدول، أو في المرحلة الأساسية في دول أخرى، ولدى بعض آخر إلى المرحلة الثانوية، كما أنها تُدرس إلى مستوى الجامعة في دول أخرى من القارة السمراء.

وفي المقابل نجد أنها تمثل لغاتٍ اختيارية للأقليات الإفريقية في ثانويات بعض الدول الأوربية، وبخاصة فرنسا، وأداة للبحث في بعض المراكز العلمية والجامعات الكبرى في أوربا وأمريكا، وفي طليعة هذه اللغات: اللغات الحدودية، أو الغالبة، وذهبت الأكاديمية الإفريقية للغات إلى أن "أقل من ١٠% من لغات إفريقيا تعرف بحثًا وصفيًا، بيد أنه يُجهل ٩٠% من لغاتها".

ثانيًا- عوائق تطور اللغات الإفريقية:

إن اللغات الإنسانية تتطور بمجموعة من الوسائل والآليات، وتتعرض أحيانًا للخطر والمشكلات، والتي تعود إلى عوامل داخلية أو خارجية.

وعلى ضوء ذلك يمكن إيراد بعض العوامل التي حالت دون تطور اللغات الإفريقية:

العامل الثقافي:

إن القارة الإفريقية غنية بتعدد ثقافاتها وحضاراتها؛ إذ نشأت فيها العديد من الممالك والإمبراطوريات في الشرق والغرب.

إن مسألة الوعي الثقافي من المسائل التي تطرق إليها (برزي ٢٠١١م) بالتفصيل، فطرح سؤالاً مهمًا، وهو: لماذا تقنين لغاتٍ وطنية إفريقية في دساتير بعض الدول الإفريقية؟ فعزا ذلك إلى الفرق بين الشعوب التي اختارت لغاتٍ وطنية فقط، أو هي مع لغة أو لغات غربية في ترسيم مسيرتها اللغوية، والتي اختارت لغة أو لغات استعمارية فقط في سياساتها اللغوية، فوضّح أن الشعوب التي اختارت النظام اللغوي الأول توصلت إلى ذلك بفضل وعيها الثقافي الموغِل في القِدَم.

وعليه، فإن إيلاء أية أهمية للثقافة يؤدي بالطبع إلى تنمية لغوية قومية، وعكسه يؤدي إلى إخفاق اللغات، وربما إلى موتها أحيانًا.

وأعتقد أن ما طرحه (ويدراغو) من أن "صعوبة الانتقال تُعد عائقًا" يمثل جزءًا من المشكلة، أي صعوبة الانتقال من اللغات التي مارستها واستعملتها الأجيال الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والبرتغالية... إلخ، إلى غيرها من اللغات القومية الأصلية، والتي لم يعد بعضهم يجيدونها إجادة تامة، يُضاف إلى ذلك مشكلة الازدواجية اللغوية، مرورًا بالمصطلحات التقنية والعلوم التي حظيت بها اللغات الاستعمارية.

كما أن طرحه صحيح - حسب اعتقادي - من ناحية أخرى؛ لأن ما ترسّخ في مفهوم أغلب الأجيال أن الانتقال من اللغات الغربية إلى اللغات الإفريقية يُعد تراجعًا ثقافيًا، وهذا في الواقع مشكلة خطيرة من مشكلات الغزو الفكري، قد تجعل الباحث يتشاءم بشأن أي إصلاح لغوي في السنوات القادمة، حينما لا توجد قناعة وثقة لدى مستوى معين من النخبة المثقفة من الشعب بلغاتهم الأصلية، ومع ذلك يُلاحظ أن المشكلة متفاوتة بين الدول الإفريقية.

تعدد اللغات الإفريقية:

إن شعوب القارة الإفريقية غارقة في تعدد لغوي خطير، ومن ثم فإن انتخاب اللغة التعليمية أو الرسمية ليس بالهيِّن ما دامت كل لغةٍ تسعى إلى الهيمنة.

وبصيغة السؤال: ما معايير ترسيم لغة قومية في جو تعدد لغوي؟

إذا اقتضى الأمر اختيار لغة قومية، سواء في التعليم أو الترسيم، فإن من الحكمة أخْذ كل هذه اللغات أو أغلبها في الحسبان؛ لأن فرض لغة قومية على أخرى قد يؤدي إلى توتر ومشكلات عِرقية لا تُحمد عقباها، كما أن تعدد اللغات وكثرتها لا ينبغي أن يكون عائقًا نحو استعمال مختلف مستوياتها في التعليم، إذا كانت هناك إرادة سياسية قوية، ومن أمثلة ذلك (إبابوزي) التي "استطاعت في ثلاث سنوات فقط وضع نظام تعليمي لأكثر من نصف لغاتها التي تُعد بالمئات".

عامل الهيمنة:

من المسلَّمات أن النظام الإمبريالي أيضًا له يدٌ طولى في عرقلة تطور اللغات الإفريقية بسبب موقفه الاستغلالي وهدفه الاستخرابي، حيث ظل يخطط لتبقى لغاته دومًا حية وقوية دعمًا لأطماعه في القارة الإفريقية، وزعم المستعمرون - تضليلًا - أن الهدف من تغريب الأفارقة، بما في ذلك تحريضهم على استعمال لغات غربية، هو "تمدين الإفريقي

الأصلي، وكأن أي إفريقي متمدن هو الذي بإمكانه وحده أن يأمل في الحصول على وظيفة ذات شأنٍ وعلى اهتمام المستعمرين".

هذا بالإضافة إلى موقف الغرب المتناقض حول قيمة الثقافة الإفريقية، مرورًا بتضليل الشعوب الإفريقية عن حقيقة حضاراتهم، واختتامًا بشروط الاندماج في المجتمعات الغربية، ذلك أن هذه الأخيرة تضع معيارًا لهذا الاندماج يتمثل في معرفة مستوى معين من لغاتهم، وينعتون الفرد عندئذٍ بالمُتَمَدِّن، أو المندمج، عندما يقدر على القراءة والكتابة بالفرنسية ـ مثلاً ـ، وكانت البرتغال تكافئ الإفريقي الذي وصل إلى مستوى معين من المعرفة، أما البلجيكيون فكانوا يتباهون أيضًا كغيرهم بتسمية مستعمريهم من البانتو في الكونغو بـ (المتطورين)، أي الذين تطوروا من الوحشية إلى المدنية بفضل البلجيكيين، ولا يبعد عنهم الإنجليز كثيرًا، الذين يرون أنه ينبغي على الإفريقي أن يكفّ عن التفكير كالإفريقي، بل الأحرى به أن يصبح إنجليزيًّا ذا عقلية مرنة!.

إن هذه المواقف والمقولات وغيرها كانت ـ ولا تزال ـ تُساق للنيْل من اللغات والثقافات الإفريقية، ذلك أن قوى الاستعمار عندما احتلت إفريقيا سعت إلى القضاء على اللغات الأصلية بحجة أنها لا اعتبار لها ولا تصلح في تنمية شعوبها.

وحري بنا أن نردّ على هذه المقولات الأسطورية بأدلة المنصفين الغربيين أنفسهم، من باب (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا)، فهذا (والتر رودوني) يَرُدّ على أمثال هذه الأفكار الإمبريالية الهدامة في أماكن مختلفة من كتابه، ليؤكد "أن أولئك الذين اتخذوا طابعًا أوروبيًا قد تخلّوا بالدرجة نفسها عن إفريقيتهم، وذلك كإحدى نتائج التعليم الاستعماري والجو العام للحياة الاستعمارية".

ولا ننسى ـ مبدئيًّا ـ أن الدول الكبرى لا تقبل لمستعمراتها أبدًا المبادرة بتنمية لغاتها القومية، أو ترقيتها إلى مصاف اللغات الغربية، فضلًا عن إحلالها محل اللغات الغربية في الاستعمال القومي، وإن كان هنالك ـ في الحقيقة ـ تفاوت بين مواقف هذه الدول، فقد "أدركت الحكومة الاستعمارية الألمانية أهمية اللغة السواحلية، وعلى الرغم من أن هذه الحكومة لم تبق إلا زمنًا قصيرًا في تنزانيا، فقد كانت مؤثرة في نشر اللغة بشكلٍ أكبر باستعمالها لإقامة بنية إدارية تحتية، أعقبهم البريطانيون الذين عملوا انسجامًا مع سياساتهم (فرّق تسُد)، فشجّعوا اللغات المحلية والإنجليزية بدلاً من السواحلية"، وقَبِلَ الإنجليز استعمال

اللغات الأصلية في التعليم الذي يُعد نظامًا شبه منتشر في مختلف المستعمرات، وبخاصة غانا ونيجيريا.

وفي المقابل، فإن فرنسا تعارض ذلك بكل ثمن، فلا تتوانى في خلْق أفظع أنواع المشكلات للدول التي تحتلها عندما تقدم على هذا التصرف، والدخول معها في توتر، ويفهم كثيرٌ من اللسانيين أن مآخذ فرنسا على مالي، في ضوء الظروف الراهنة، تتمظهر في أنه بالإضافة إلى موقف مالي المتحفظ اقتصاديًّا وثقافيًّا تجاهها، فهناك موقف لساني آخر، متمثل في التنديد القومي المحموم ضد استعمال اللغة الفرنسية في الخطابات الرسمية، والذي لا يمكن أن يناقش حسب علمي في مستويات رفيعة بصورة سهلة في كثيرٍ من الدول الإفريقية الفرنكوفونية، حيث دعت الحركات القومية إلى إحلال اللغات الوطنية مقام اللغة الاستعمارية، وهذا يشير إلى شيءٍ من الوعي المتنامي يومًا بعد آخر، أدى إلى اتخاذ هذا الموقف الناضج، ولكن بلا جدوى!.

ولا تبعد عنها "الجابون" التي أضحت تستعمل اللغة الإنجليزية في نظامها التعليمي من المرحلة الأساسية لتصبح ثنائية لغوية استعمارية، مما يبعث على القلق مما ستخبئه لها الأيام القادمة!.

ويؤكد (ويدراغو) الفكرة نفسها في أماكن كثيرة من كتابه، وبصورة واضحة، يمكن تحليل ما أورده مفصلًا بطريقة رياضية مختصرة ومهذبة بالطريقة الآتية: (ت ل = م ب)، تعني هذه الدائرة أن (التخطيط اللغوي أو التربوي) يساوي (المشي على البيض) في إفريقيا، وهو يستند في ذلك إلى أدلة، مفادها: أن نظم أكثر الدول في غرب إفريقيا، أو إفريقيا ككل هشّة؛ وأيُّ إصلاحٍ لغوي أو تربوي يهدد استقرارها، يمكن أن يوقع الدولة فيما لا تحمد عقباه، ذلك أن المستعمرين لم يقفوا عند هذا الحد، "بل إنهم بالإضافة إلى ذلك، صبوا جامَّ عنصريتهم على الأفارقة مثلما فعل هتلر مع اليهود".

عامل التخطيط اللغوي:

إن التخطيط عاملٌ مهمٌ في تأسيس الدول، وهذا التخطيط، سواء أكان قريبًا أو بعيد المدى، يوفر مسارًا للاستمتاع بحياة أفضل ثقافيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا... إلخ، ويدخل في ذلك "التنبؤ باحتياجات المستقبل في ضوء إمكانات الحاضر والقوة المؤثرة فيه، والعمل الإيجابي الهادف نحو تحقيق هذه الاحتياجات".

إن من يطلع على (التخطيط اللغوي في العالم) لـ (Jacques Leclerc ٢٠١٠) والذي يدور حول لغات إفريقيا، واحدة تلو الأخرى، وطريقة ترسيمها وتخطيطها، سواء أكانت أحادية أم ثنائية أم متعددة، يُلاحظ أن هناك مجموعة قليلة من الدول الإفريقية التي اختارت أحادية لغوية وطنية في قانونها الأساسي، لتكون صدى لسياستها اللغوية.

- ومن هذه الدول، دول اختارت أيضًا أحادية اللغة، مع المعاهدة بتخطيط اللغات الوطنية.

- ومن هذه الدول، دول اختارت ثنائية لغوية مؤسسية، فساوت بين اللغات الاستعمارية والوطنية.

- يُلاحَظ أن هناك دولاً اختارت ثنائية لغوية استعمارية رسمية.

- يُلاحَظ أن هناك دولاً اختارت التعدد اللغوي الرسمي بين لغتين أجنبيتين، إضافة إلى لغاتٍ وطنية.

- في المقابل، هناك دول انتخبت لغات استعمارية فقط في قوانينها، أي لم تولِ أيَّة أهمية للغاتها الأصلية.

إن التربية والتعليم تتطلبان مجهودًا على مستوى التجهيز، أو على مستوى التقويم والتخطيط، كل ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا بالقدرة الاقتصادية، وفي الواقع تحسّن (التربية المتقاربة) CONVERGENTE PEDAGOGIE من مردودات التعليم الأساسي؛ وقد أثبتت النتائج أن عدد المتعلمين في تقدمٍ اليوم، ومع ذلك فإن تكاليف (التربية المتقاربة) لكل تلميذٍ أعلى من تكاليف نظيره (أي من المدارس الكلاسيكية التي تدرس بالفرنسية)، ويرجع هذا في جانب منه إلى تكاليف الاستثمار في مرحلة التوسع المرتبطة بتكوين المعلمين.

ونظرًا للعجز الاقتصادي الذي تعيش فيه أغلب الدول الإفريقية، فإن ميزانية التعليم الأساسي باهظة جدًّا، وليس في استطاعة هذه الدول تحمل جميع نفقاتها، ذلك أن ثلث الميزانية التي تخطط لها - أحيانًا - تموَّل بدعمٍ من شركاء غربيين، أو منظمات حكومية، أو غير حكومية، لأهدافٍ لا يسعنا ذكرها هنا، وهذا مما يثير مخاوف اليونسكو، كما "تهدد الصدمة الناجمة عن الأزمة المالية العالمية بحرمان ملايين الأطفال في أفقر بلدان العالم من التعليم، ففي حين لا يزال ٧٢ مليون خارج المدارس، يُخشى من تضافر عوامل: تباطؤ النمو

الاقتصادي، تزايد الفقر، وضغوط الميزانية، أن يقوض المكاسب المحصّلة في ميدان التعليم خلال العقد المنصرم".

الأدب الأفريقى بين المأثورات الشعبية وأدب الطفل:

بإنتهاء الحرب العالمية الثانية، ومع تغيُّر خريطة السياسة الدولية واشتعال فتيل الحرب الباردة التي بدت كحلبة صراع للقوى العظمى متمثلة في لاعبين أساسيين، هما: الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، طرأت تغيُّرات جديدة على وجه إفريقيا، وامتد تأثير صراع الأقطاب الجديدة إلى داخل القارة لاستقطاب دولها لأي من المعسكرين.

في ظل سقوط الاستعمار الغربي بصورته التقليدية المباشرة، وبداية المدّ الثوري من "القاهرة" إلى "كيب تاون"، انطلاقًا من حركة الضباط الأحرار في مصر، إلى أن أُعلن في عام ١٩٦٠ وحده عن استقلال ١٨ دولة إفريقية، الأمر الذي استرعى أن يطلق عليه الباحثون عام إفريقيا، وامتد موج التحرر الهادر لتنال آخر جيوب الاستعمار الغربي استقلالها في ناميبيا عام ١٩٩٠، بالتزامن مع بداية تحلل نظام الفصل العنصري ـ أبارتهيد ـ بجنوب إفريقيا بداية من عام ١٩٩٠ إلى أن أُجريت انتخابات عامة ديمقراطية ١٩٩٤.

ثقافة إفريقيا متنوعة ومتعددة وتتكون من مزيج من القبائل التي لدى كل منها خصائصها الفريدة، كما تنقسم إفريقيا إلى عددٍ كبيرٍ من الثقافات العِرقية التي هي نتيجة تنوع السكان الذين يعيشون اليوم في قارة إفريقيا والشتات الإفريقي، وتظهر الثقافة الإفريقية في فنون إفريقيا وأدب الطفل وحرفها وفي المأثورات الشعبية والدين والأزياء وأسلوب الطبخ والموسيقى واللغة، إلا أن من أكثر الفنون التي تتأثر بذلك التشرزم والتشتت هو أدب الطفل.

وكبقية البشر، يمثل التراث الشعبي الإفريقي والدين مجموعة متنوعة من الجوانب الاجتماعية للثقافات المختلفة في إفريقيا، فتقريبًا كمعظم الحضارات والثقافات تم تداول أسطورة الطوفان في أجزاء مختلفة من إفريقيا، الثقافة والدين يتشاركان المساحة وهما متداخلان بعمقٍ في الثقافات الإفريقية.

وفي إثيوبيا مثلًا، المسيحية والإسلام من الجوانب الأساسية للثقافة الإثيوبية والعادات الغذائية وأيضًا الطقوس والشعائر، وفقًا لأسطورة الأقزام، تسمع الحرباء ضوضاء غريبة من الشجرة، تقطع جذعها فتخرج المياه متدفقة بشكلٍ قوي ينتشر في جميع أنحاء العالم.

تلعب القصص الشعبية دورًا مهمًا في الثقافات الإفريقية، وتعكس القصص هوية جماعة ثقافية والحفاظ على القصص الإفريقية سيساعد على الحفاظ على ثقافة كاملة.

وكما أن القصص تؤكد الاعتزاز والهوية في الثقافة، نجد في إفريقيا تؤلف جماعة عِرقية القصص لأنفسهم، مجموعات عِرقية مختلفة في إفريقيا تمارس طقوسًا مختلفة أو احتفالاتٍ للقصص، مما ينمي الشعور بالانتماء إلى جماعة ثقافية.

وسماع الأجانب لقصص المجموعات العِرقية يقدِّم لهم فكرة عن معتقدات المجتمع وآرائه وعاداته، ويسمح للأشخاص داخل المجتمع أن يقوموا بتمييز مجموعاتهم، ويظهرون رغبات ومخاوف المجموعة كالحب والزواج والموت، واعتبرت القصص أيضًا كأداة للتعليم والترفيه، حيث يقدمون وسيلة للأطفال لفهم المواد والبيئة الاجتماعية، تتضمن كل قصة أخلاقياتٍ لتعليم الناس، مثل أن الخير سينتصر على الشر، وللترفيه يتم تأليف قصص عجيبة لعالمٍ غير بشري، عادة، الشخصية الرئيسة للقصة تكون حيوانًا ناطقًا أو شخصية إنسان تحدث له أمور غير طبيعية، وعلى الرغم من أن الحكايات الشعبية للترفيه فإنها تشعر بالانتماء والاعتزاز بالمجتمعات في إفريقيا.

هناك عدة أنواع للقصص الإفريقية: حكايات الحيوانات، والحكايات اليومية، حكايات الحيوانات الأكثر ترفيهًا، مع ذلك تتضمن أخلاقياتِ وعِبَرًا، وحكايات الحيوانات تُقسَّم إلى حكايات المحتال، وحكايات الغول.

في حكايات الحيوانات حيوانٌ معين قد تكون له ذات الشخصية دائمًا، أو تكون له شخصية مختلفة في كل قصة كي لا يهتم الجمهور بالشخصيات، الأرنب البري دائمًا هو المحتال، ذكي وماكر، بينما كان الضبع دائمًا يحتال عليه الأرنب البري.

الغيلان دائمًا قاسية ووحوش جَشِعة، والطيور كانت هي الرسل في كل القصص.

الحكايات اليومية هي أكثر الحكايات جدية لا تتضمن فكاهة أبدًا، وهذا يوضح الحياة اليومية والنضالات في المجتمع الإفريقي، هذه الحكايات تتخذ مسائل مثل المجاعة والهرب من الموت والتودد وشئون الأسرة، باستخدام أسلوب الأغنية عندما كانت تقال نهاية القصة.

كانت هذه مقدمة مهمة لفهْم السياق التاريخي والسياسي الذي تشكل فيه الأدب الإفريقي الحديث، والذي عبَّر عن آمال القارة المتحررة لتوها بلغات المستعمرين.

يقول الكاتب النيجيري الشهير تشينوا أتشيبي: "لا يمكن أن تحشر الأدب الإفريقي في تعريفٍ صغير محكم، فأنا لا أرى الأدب الإفريقي كوحدة واحدة، وإنما أراه كمجموعة من الوحدات المرتبطة، تعني في الحقيقة المجموع الكلي للآداب "القومية" و"العِرقية" في إفريقيا".

فالأدب الإفريقي ككل آداب الأمم مرَّ بمراحل التكوين الأساسية، والتي بدأت بالنقل الشفهي للحكايات والقصص والملاحم الشعبية المحلية، ومن ثم التدوين الذي تتفاوت عملية إتمامه من أمة إلى أخرى وفقًا لما وصلت إليه من حضارة، وقد حاول المستفرقون الأوربيون تتبع الحكي الشفهي في القارة السمراء، فكانت أول محاولة أوربية جادة لجمع ألوان الأدب الشفهي الإفريقي في عام ١٨٩٦ أعدَّها المستفرق الألماني "أوجست سيدل" في صورة كتاب ضخم تحت عنوان "قصص الإفريقيين وحكاياتهم"، وقد دعا "سيدل" القارئ في تقديمه للكتاب إلى رؤية الإفريقي المتوحش وتخيله وهو يفكر ويشعر ويتخيل وينظم الشعر مثل بقية البشر.

وتوالت محاولات نقل الأدب الشفهي الإفريقي من كلام تلوكه الأفواه إلى كلماتٍ محفوظة في كتب، فجاء المستفرق الألماني "ليوفروبنيوس"، فنشر عددًا من الحكايات والقصص تحت عنوان "الديكاميرون السوداء"، وهو عنوانٌ مستوحى من الكتاب الإيطالي "الديكاميرون" أو "الليالي العشر"، ثم جاء زميله "ماينهوف" بكتاب "حكايات خيالية إفريقية" نشره عام ١٩٢١، وعاد "ليوفروبنيوس" في عام ١٩٢٧ لينشر كتابه الضخم "أطلانطيس" أو "القارة المفقودة"، والمكوَّن من ١٢ جزءًا في ٤١٢٨ صفحة جامعًا بين ضفافه مئات القصص والأساطير والخرافات الشعبية.

وتعتبر محاولات "سيدل" و"ماينهوف" و"فروبنيوس" هي التي لفتت الدارسين إلى التراث الإفريقي بشكلٍ واضحٍ، وذلك بالرغم من وجود محاولات إفريقية مبكرة في هذا المضمار بدأت عام ١٨٤٣، لكن تلك المحاولات لم تنشط ويشتد عودها إلا خلال الحربين العالميتين، ثم ما تلاها من ثورات الحرية والاستقلال.

وقد شهدت تلك الأعمال انقسامًا بين اللغات الأوربية واللغات الإفريقية المحلية كما سبق وأشرنا، ومن أبرز اللغات الأوربية التي كُتبت بها المؤلفات الإفريقية: الإنجليزية، والفرنسية، والبرتغالية، واللاتينية، والأفريقانية، والألمانية، والهولندية، والإسبانية، إلى

جانب اللغات الإفريقية التي وصلت إلى ٧٠٠ لغة، منها ٤١ ذات أبجدية مكتوبة، ومن أهمها: السوتو، والزوسا، والزولو، ونيانجا، وبيمبا، وتسونجا، والترنسفال، وغيرها الكثير.

لم ينتهِ الحكي عن الأدب الإفريقي قطعًا باستدعاء أصوله، وتلمس فروعه، فدروب الأدب الإفريقي تشعبت وبدأت تزداد تعقيدًا بتدفق النور إلى إفريقيا وانتقال الحداثة إليها، منذ تحررها بدايةً من منتصف القرن الماضي، إلى وضع بعض الدول فيها الأقدام على طريق التنمية والحضارة، ولكن أهم ما يعنينا هى المشكلات التي يتعرض لها ذلك الأدب من تشويه جرّاء كتابته بلغة المستعمر، كذلك ما يعوق نقل تلك الأعمال الأدبية وتداولها بين أطفال القارة الإفريقية لتكون كيانًا أدبيًّا وثقافيًّا موحدًا.

خاتمة:

إن إفريقيا تعيش معضلة كبيرة نظرًا لما تطمح إليه، وما تجده في الواقع العملي، ذلك أنها كلما خططت لإجراء إصلاحٍ أدبي وتربوي داعٍ إلى تطوير لغات أصلية، اصطدمت بتنمية لغات غربية مقابل إعفاء الديون أو التخفيف منها، أي أنها تعيش بين المدق والسندان، ويتضح ذلك مثلًا في سياسة فرنسا التي تتزعم الفرنكوفونية، وأتباعها من بلجيكا وكندا، في إطار التسويق للغة الفرنسية عالميًّا، حيث تستعمل الضغط الاقتصادي على مجموعة من الدول الإفريقية الفقيرة، كما اتضح ذلك في الإعلان المثير للرئيس "ميتران" في قمة داكار الفرنكوفونية (٢٤ ـ ٢٨ مايو ١٩٨٩م)، حيث قال: "إن فرنسا سوف تلغي الدين العام للبلدان الإفريقية الخمسة والثلاثين الأفقر، وهو ١٦ بليون فرنك في جملته، وفي المقابل يُنتظر من هذه البلدان أن تستمر في ضمان دور التفوق للغة الفرنسية في الحكومة".

إنه من الصعوبة الخروج من هذه المآزق ما دام هناك ارتباطٌ اقتصادي بالدول الكبرى التي تضغط بكل ما أوتيت من قوة على الدول الفقيرة، فتوقعها فريسة؛ لتخضعها لمصالحها الخاصة، وتملي عليها ما تريد، ولا يمنعنا ذلك من أن نطرح إمكانية تطور اللغات الإفريقية في بحوثٍ أخرى.

الإحالات والمراجع:

ـــــ URL

http://online.wsj.com/article/SB١٠٠٠١٤٢٤٠٥٢٧٤٨٧٠٤٥٤٧٦٠٤٥٧٦٢٦٢٥٧٢٧٩١٢٤٣٥٢٨.html?mod=goog_news_wsj

ـــــ URL: http://www.theroot.com/views/what-about-our-origins, ١٥ أبريل ٢٠١١.

ـــــ Jean B. Ntakirutimana & Alphons Kanano , Écolinguistique, multilinguisme et langues maternelles en Afrique, p : ٤٢، ٠٠٤N•، ACALAN, Mali

ـــــ Heine & Derek Nurse Bernd, Les langues Africaines، ٢٠٠٤، Karthala, Paris, p٩.

ـــــ Comité de linguistiques, Déclaration universelle de droits linguistiques، ١٩٩٨، ١٠p، Barcelona.

ـــــ دليل إعداد البرامج والكتب لمحو الأمية بالحرف القرآني المنمط، إيسيسكو، ٢٠٠٣م، الرباط. وأمين أبو منقة: صوتيات لغات الشعوب الإسلامية في إفريقية، م. إيسسكو، ١٩٩٩م، الرباط.

ـــــ الثقافة والتنمية، الأعمال والإنجازات، ص ٨، جماعة من الباحثين، بالتعاون مع برتش كونسيل، بلا سنة.

ـــــ Montray KREYOL, Langues Nationales et développement en Afrique، jeudi ٢٤ avril ٢٠٠٨.

ـــــ راجع: auranne Provenzano, La langue française sauvée par l'Afrique؟ على الرابط الآتي:

http://www.jeuneafrique.com/Article/ARTJAWEB٢٠١٠١٠١٣١٢٣٢٤٣p/-l-par-sauvee-francaise-langue-oifla-developpement-afrique-enquete-afrique.html, ٢٠١٠/١٠/١٣ à ٠٠h:١٣

ـــــ Jean B. Ntakirutimana & Alphons Kanano, Écolinguistique, multilinguisme et langues maternelles en Afrique, p ٤٢، N•٠٠٤, Mali, ACALAN.

ـــــ ويدراغو، ص (٢٤، ٢٥).

ـــــ Tomas BLECKE ٢٠١١، Dynamique de langue et politique linguistique, Conférence Nationale sur le projet de document de politique linguistique au Mali, p٥.

ـــــ أوروبا والتخلف في إفريقيا، والتر رودوني، ت/ أحمد القصير وآخر، ص ٣٢٤، عالم المعرفة، ع ١٣٢، ١٩٨٨م، ويمكن مراجعة الصفحات التي بعدها؛ فهي في غاية الأهمية.

ـــــ راجع: اللغة والاقتصاد، ص ٢٣٣.

ـــــ راجع: OUEDRAOGO، ص ٢٤.

ـــــ د. خالد الصمدي، الموقع etMatarmatar.n

ـــــ Rakissouiligri Mathieu OUEDRAOGO, planification et politiques linguistiques dans certains pays sélectionnés d'afrique de l 'ouest, p ٢٦ & ٤٠، Ed, Mulualem Seyoum, L'UNESCO, ٢٠٠١.

ـــــ أوروبا والتخلف في إفريقيا.

ـــــ دليل التخطيط التربوي لمحو الأمية، عبد الفتاح صالح شريف، منشورات إيسسكو، ٢٠٠٤م، الرباط.

ـــــ راجع: http://arz.wikipedia.org/wiki/

ـــــ راجع: قضايا لسانية إفريقية، برزي.

ـــــ راجع: تقرير اليونسكو يحذر من أن الأزمة المالية تهدد بخطر تقهقر التربية في العالم، ٢٠١٠م.

ـــــ اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ت/ أحمد عوض، ص ١٣٧، عالم المعرفة، ع ٢٦٣، ٢٠٠٠م – الكويت.